الباب السابع

فى ذكر القتال بين
أبى الأبطال الريبال وأبى دغفل سلطان الأفيال

obeikandl.com

obeikandl.com

قال الشيخ أبو المحاسن : من ليس له فى الفضل مساو ولا مواس[1] :

فلما أنهى الحكيم حسيب كلامه الأحلى من النسيب ، قَبل أخود بين عينيه وأفاض خِلَع الإنعام عليه ، ثم استزاده وفتح لجامع فضله باب الزيادة ، وكان قد وقع بين ملك الأفيال ، وبين ملك الأسود ، المسمى بالرئبال[2] ، المكنى بأبى الأشبال ، وأبى الأبطال مقال أدى إلى الجدال ، واتصل بحرب وقتال ، فسأل الملك أخاه هل سمع من ذلك شيئاً ووعاه ؛ فأجاب بالإيجاب وذكر فى الجواب الأمر العجاب .

[٦٠] **فقال** : كان يا ملك الزمان فى بعض أطراف الهنود من عساكر الأفيال جنود ، فى جزيرة عظيمة كبيرة لهم من جنسهم وجلدتهم ونفسهم ملك عظيم ، ذو جسم جسيم وشكل وسيم ، منظره بديع وهيكله رفيع ، طويل الخرطوم واسع الحلقوم مبسوط الأذنين حديد العينين[3] ، طويل الأنياب ، كأنه طود فى جراب[4] ، كثيف فى المرأى خفيف فى الموطأ ، عدد جيشه غزير ، ومدد جنده كثير ، وهو فيهم ملك كبير ذو قدر خطير منفرد بالسرير، ورثه كابراً عن كابر ، وكل جيشه رؤساء وأكابر ، لأوامره طائعون ولما يراه تابعون .

فبلغه فى بعض الأيام أن فى بعض الغياض والآكام ، مكاناً فى غاية النزاهة معدن الفواكه والفكاهة ، ذا مياه عذبة ومروج رطبة أراضيها أريضة[5] ، ورياضة طويلة عريضة ، أطيارها تُسْكِر بألحانها ، وأشجارها

---

(١) أى لا يوجد مثله فى صلابته .

(٢) من أسماء الأسد .

(٣) شديد حدة البصر .

(٤) أى وكأنه جبل فى سفينة يمشى فى البحر .

(٥) أرض كثر عشبها .

تخجل قدود الملاح بأغصانها ، وأزهارها زَهِـرَة ، وأنوارها نضـرة ، ونسيم الصبا والشمال تنشر إلى الآفاق طيب أنفاسها العطرة ، وأنه يصلح أن يكون لملك الأفيال مقاماً مع أن فيه من الجبال والحصون معاصم وعصاما ، غير أن فيه أسداً هصوراً[١] جمع فيه جنداً كثيراً .

ولازال الناقل يصف رُيطنب ، ويعجم فى حسن شمائلها ويعرب ، حتى قال بعض الندماء الحاضرين من الكبراء : لو قصد الملك ذلك المكان وجعله لنفسه من بعض الأسكان ، وتنقل إليه فى بعض الأوقات وساعات التفرج فى المنتزهات ، لأراح نفسه الخطيرة من وخم هذه الجزيرة ، ووجد لذة الطعام ونشوة الشراب على المدام ، والأسد الذى فيها ، وإن كان مالك نواحيها وبيد تصرفه زمام نواصيها ، وجماجم قلاعها وصياصيها[٢] ، لكنه ملك عادل وسلطان فاضل ، تمنعه شهامته وكرم نفسه وكرامته ، ورياسته وزعامته أن يضايق الملك فى ذلك ، أو يضيق سلوكها على سالك ، وإن شرع فى الممانعة وأخذ فى أسباب المدافعة بالمقارعة والمنازعة ، فالعساكر المنصورة وأعدادهم الموفورة ، فيهم بحمد الله لذلك قوة وكفاية ولهم فى بداية الحروب هداية ، وفقاهة ليس لشرحها غاية ولا لفروع أصولها نهاية ، يُحيون فى مباحثها النفوس ، ويعيدون فى مدارس الحرب بتكرار الضرب فانى الشجاعة بعد الدروس ، فيكفون الملك أمره ويكفون أذاه وشره .

ولازال يفتل منه فى الغارب والذروة ، ويقوى بتمويهاته دواعى الحرص والشهوةُ ، حتى اقتنصته أشراك المطامع ، وأوقعته فى عبودية شهوة تلك المواضع ، ودعته النفس الأبية وحمية الجاهلية وباعث العصبية إلى الاستيلاء على تلك الأماكن البهية والولايات السنية ، والمساكن الزهية ،

---

(١) الهصور من أسماء الأسد ؛ لأنه يصهر فريسته .

(٢) أى لا يوجد مثله فى صلابته .

وإسامة سوارح اللِّحاظ في مراعي نزهة تلك الغياض ، ومروج أراضي هاتيك الرياض ؛ وأزعج في ذلك المقتضى وأسلمه العدل والخلق الرضى ، وغلب عليه سيء الطباع واستولت عليه فوارغ الأطماع ؛ وعشقها على السماع .

وكان عنده أخوان هما له عضدان ، هما وزيراه وفي مهامه مشيراه ؛ مسعداه في الأمور ومنجداه في أحوال السرور والشرور ، أحدهما واسطة خير قليل الشر عديم الضير ، قد جرب الزمان وعاناه ، وقالب قوالب وقائعه بالمقايسة ما قاساه ، اسمه : مقبل ، وهو كاسمه مفضل ، والآخر بالعكس في جميع حركاتهِ وكس[1] ، وهو كاسمه مدبر ، بكل شيء مخبر ، قصده غبار فتن يثيره وعسكر بلاء يغيره ، وطالب أذى وعناء يعيره ، أو سر يذيعه ، أو مكر يشيعه أو متسوق شر يبيعه ، وهما ملازمان الخدمةَ واقفان في مقام الحشمة والحرمة كالفتق والرتق ، والباطل والحق ، والكذب والصدق ، وفي الإفساد والإصلاح كالمرهم والجراح ، ومصلح الدرهم ومفسد الراح ، ومرشد العقل ومعتل الأقداح ، وفي الوفاق والشقاق كالسم والترياق ، وفي الحكم والقضاء كالداء والدواء ، وفيما يقع من الحوادث المفرحات والكوارث كالحر والبرد ، والشوك والورد ، فاختلى الملك بأخويه واستشارهما فيما أنهى إليه .

فقال أخوه المقبل : يا مولانا أبا دغفل[2] ، لو لم يكن بهذا المكان أحد من أدنى الوحوش فضلاً عن الأسد ، لكان عدم قصده ترفعاً وترفيا والتوجه إلى الاستيلاء عليه موجباً ، فكيف وذلك في ولاية مالك وهو مالك صعب ؛ كأبي حفص الصعب ، ملك كبير عادل وسلطان خطير فاضل ، مطاع في

---

(١) ناقص خسيس .

(٢) ولد الفيل .

صاغيته[1] متبوع فى حاشيته ، عادل فى رعيته ، سيرته مشكورة ، ومحاسنه مأثورة ، وهيبته وبسالته غير منكورة ، وهو جار حسن الجوار لم يضبط عليه ما يقتضى انتزاع ملكه من يديه ، ولم يتعرض إلى متعلقاتنا ولا آذى أحداً فى ولايتنا ، وإن مولانا السلطان لم يصدر منه إلا العدل والإحسان إلى الأباعد والأجانب ؛ فضلاً عن الجيران ، لاسيما الملوك الأكابر ومن ورث الملك كابراً عن كابر ، ولقد تلقفت من أفواه الحكماء ، وتشنفت مسامعى من جواهر ألفاظ العلماء بثلاث نصائح هى من أحسن المنائح ؛ إحداها : احذر أيها الموفق أن تقع فى دم بغير حق . ثانيتها : إياك يا ذا التوفيق وأموال الناس بغير طريق . ثالثتهما : إياك ذا الشيم الكريمة وهدم البيوت القديمة . واعلم أن الله تعالى عم رزقه ، وخص كل موجود بما يستحقه ، وقد أقام الأسد فى تلك الأماكن وهو وإن كان متحركاً فهو فيها ساكن ، ولو لم يستاهل لما اختص بتلك المناهل ، وما ينكر هذا إلا جاهل أو من هو على الحق ذاهل، وحاشى أن تنسب يا رئيس الأخيار إلى حسد أو سوء جوار ، وعظمتك تأنف عن ذميم الأخلاق ، وكيف وقد انتشر بالفضل صيتها فى الآفاق ، وإذا كان للشخص ما يكفيه فينبغى أن يقتصر عما يطغيه «ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[2] . وقد أحسن فى المقال من قال :

يا أحمدُ اقنع بالذى أُوتيتَهُ   إن كنت لا ترضى لنفسكَ ذلَّها
واعلم بأن الله جلَّ جَلالَه   لم يخلق الدنيا لأَجْلِكَ كلَّها

فالتفت الملك إلى المدبر ، وأشار إليه كالمستخبر ماذا تشير أيها الأخ والوزير ، فقال : جميع ما قرره مولانا الوزير حق ، وجملة ما ذكره وحرره صدق ، نصائح ترشد العقول وتزين عقود المعقول والمنقول ، ولكن لا يخفى

---

(١) الأهل .
(٢) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب (١١) (٢٣١٧) وقال : حديث غريب .

على كريم العلوم أن الأسد حيوان ظلوم غالب طالب ، وخلاص الرعية من شره واجب ، ويلزم كل أحد أن يخلص الرعايا من ظلم الأسد ، ومولانا يبلغه ظلمه ولم يحط بأحوال الأسد علمه ، وإنه من أظلم البرية لمن تحت يده من الرعية ، وإنه يجب على مولانا السلطان خلاص الرعية منه على أى وجه كان ، وأيضاً فإن إنعامات مولانا البارة على كل أحد من الخلق دارَّة ، والخَرْجُ والكلف والكرم الذى ائتلف ، كل يوم فى ازدياد والعساكر المنصورة كل وقت تزداد، وإذا لم تتسع الولايات وتكثر الجهاتُ والإقطاعات ، كان الخَرْج أكثر من الدخل ، والمصروف من الخزانة كالوابل[1] والدخل كالطل[2] ، وإذا زاد المصروف على الحاصل عجز الواصل وفرغ الحاصل ، ودل ذلك على ركاكة الهمة وقصور النهمة ، والملك يجب عليه والمندوب فى شرع همته إليه ؛ أن يكون كل وقت جديد فى فتح سعيد ، وتَرقٍّ مزيد وتوسعة الممالك ، وتنزيه بساط السلطنة عن المنازع والمشارك ، والاستكثار من الجند والرعية واستجلاب ، خواطرهم الأبية بالجوائز السنية ، والإنعامات السمية ولا يجوز فى ملة الإسلام أن يتعدد الخليفة الإمام ، ولله در القائل العلى الشمائل :

إذا مالَم تكن مَلِكاً مطاعاً ... فكن عبدا لمالِكِهِ مطيعاً
فإن لم تَمْلُك الدنيا جَميعاً ... كما تهواه فَاتْرُكها جَمِيعاً

وناهيك يا مالك الممالك والمماليك فى علو الهمة وصدق العزمة ، وغوص الأفكار فى استخلاص ممالك الأقطار ، قضية فحل الرجال تيمورلنك الأعرج الدجال ، مع نائبه الله داد ، أحد القواد ونواب البلاد فسأل أبو مزاحم أخاه عديم المراحم ، عن تلك القضية وإيضاحها عن جليه .

---

(١) كثير غزير .
(٢) قليل ضعيف .

[٦١] **فقال** : إن تيمور رأس الفساق ؛ الأعرج الذى أقام الفتنة على ساق ، لما حل بالممالك الرومية فى شهور سنة خمس وثمانمية ، وأسر مالكها واستخلص ممالكها ، استمر فى ممالك العرب يصول وفى فكرة استخلاص ولايات الشرق يجول ، وكان أقصى ما انتهت إليه فى الشرق مملكته ، ونفذت بسهام أحكامه فيه أقصيته ، بلداً يسمى أشباره قد أعده لشياطين النهب والغارة، وبنى فيه قلعة ونقل إليه من ذوى المنعة ، جنداً منتخبا من كل بقعة ، وهو فى بحر ممالك المغل والتتار ، والحد الفاصل بين ممالكه وولايات عُبَّاد الشمس والنار ، وأمر على أولئك الأجناد شخصاً يدعى الله داد ، وهو من خواص أمرائه ، ورؤساء جنده وزعمائه .

فمن جملة ما أمره به ذلك المشوم وهو مخيم ببلاد الروم ، أنه أبرز إليه مراسله فيها أمور مجملة ومفصلة ، أمره بامتثالها وإرسال الجواب ببيان كيفية حالها ، منها أنه يبين له أوضاع تلك الممالك ويوضح كيفية الطرق بها والمسالك ، ويذكر له مدنها وقراها ووهدها وذراها وقلاعها وصياصيها ؛ وأدانيها وأقاصيها ومفاوزها ، وأوعارها ، وصحاراها وقفارها ، وأعلامها ومنارها ، ومياهها وأنهارها ، وقبائلها وشعابها ، ومضايق دروبها ورحابها ، ومعالمها ومجالها ، ومُراحليا ومُنازليا ، وخاليها وآهلها ؛ بحيث يسلك فى ذلك السبيل الإطناب الممل ، ويتجنب مأخذ الإيجاز وخصوصاً المُخِلُّ ، ويذكر مسافة ما بين المنزلتين وكيفية المسير بين كل مرحلتين ، من حيث تنتهى إليه طاقته ويصل إليه علمه ودرايته ، من جهة الشرق وممالك الخطا وتلك الثغور ، وإلى حيث ينتهى إليه من جهة سمرقند علم تيمور ، وليعلم أن مقام البلاغة فى معانى هذا الجواب ، هو أن يصرف فيه ما استطاع من حشو وإطناب ، وتطويل وإسهاب ، وليسلك فى بيانه الطريق الأوضح من الدلالة وليعدل عن الطريق الخفى فى هذه الرسالة إلى أن يفوق فى وصف الأطلال ،

وتعريف الرسوم وحدود الدِّمن[١] صفة الشيح القيصوم[٢] ، فامتثل الله داد ذلك المثال وصور له ذلك على أحسن هيئة وآنق تمثال ، وهو أنه استدعى بعدة أطباق من نقى الأوراق وأحكمها بالإلصاق ، وجعلها مربعة الأشكال ووضع عليها ذلك المثال ، وصور جميع تلك الأماكن وما فيها من متحرك وساكن ، فأوضح فيها كل الأمور حسبما رسم به تيمور ، شرقاً وغرباً ، بعداً وقرباً ، يميناً وشمالاً ، مهاداً وجبالاً طولاً وعرضاً ، سماء وأرضاً ، مرداء وشجراء[٣] ، غبراء وخضراء ، منهلاً منهالاً ، ومنزلاً منزلاً ، وذكر اسم كل مكان ورسمه ، وعين طريقه ووصمه ، بحيث بَيَّن فضله وعيبه وأبرز إلى عالم الشهادة غيبه ، حتى كأنه شاهده ودليله ورائده ، وجهز ذلك إليه حسبما اقترحه عليه .

كل ذلك وتيمور فى بلاد الروم يمور وبينهما مسيرة سبعة شهور ، وكذلك فعل ذلك البطل وهو بالبلاد الشامية سنة ثلاث وثمانمية ، مع القاضى ولى الدين عمدة المؤرخين أبى هريرة عبد الرحمن بن خلدون ، أغرقه الله فى فُلْك رحمته المشحون ، وقد سأله عن أحوال بلاد الغرب وما جرى فيها من صلح وحرب ، وما وقع فيها من خير وشر ونفع وضر ، ثم أنه اقترح عليه وتقدم بالأمر إليه ، بوضوح أوضاعها ورسم مدنها وقلاعها وحصونها وضياعها وتخطيط ولاياتها ، وأشكالها وهيآتها ، فامتثل ذلك وأبداه ، وعلى حسب ما اختاره واقترحه أنهاه ، وبيَّن ذلك مثل ما ذُكر أعلاه فشاهد أوضاعها ، وخبر وهادها وبقاعها ، كأن الحائل رفع من البين وعاين عَيْن ذلك الإقليم بالعين ، فانظر إلى هذا الاعتمى وهو سطيح نصف آدمى ، وهمته العالية كالبرق ، تضرب تارة فى الغرب وأخرى فى الشرق .

---

(١) حدود الديار .

(٢) نبات طيب الرائحة يتداوى به ، رائحته نفاذة .

(٣) أى بدون ورق .

وإنما أوردت هذه القضية ؛ ليقف سامعها على مقدار الهمة العلية فلا يرضى الملك الهمام بالمنزلة الدنية ، ولا يقنع بالدرجة الوطية ، بل يجتهد فى تكثير الجند والرعية ، وفتح الأقاليم العربية والعجمية ، ولا يقتصر على الحالة السوية ؛ وإنما يلازم طلب الارتقاء بكرة وعشية ، ويكون سعيه كالشكر يطلب المزيد ، وكما يستديم طلب الزيادة من مولاه يستديم زيادة العبيد ، وإلا فينسب إلى قصور الهمة وإفلاس الذمة ، ونقصان الحرمة وبطلان الحشمة ، وأعظم بها من وصمة ، وبالعجز والتقصير يضيع حقوق الملك الخطير ، وتجد الرعية للصعن مقالاً وفى ميدان الإعراض عن الملك مجالاً ، وهذا خلاف موضع الإمامة وعكس ما تقتضيه الرياسة والزعامة ، فإن موضوع السلطنة أن يتعاطى الملك مهما أمكنه ؛ من أسباب الفتح والفتوح، وما يشتمل به من الرعية القلب والروح ، وذلك بالإحسان والإكرام والبذل والإنعام فبه تقوى رغبتها ، وتزداد محبتها ، فإذا لم يكن ذلك فَلَّ[(١)] المملوك عن المالك واسمع قول الأديب ذى الرأى المصيب وهو :

إذا أهملْتَ أمرَ العبد يوماً وقصَّرت العليق عن الحمار
توقف فى المسير أبو زياد وقام العبدُ يجرى للفرار

وقيل : والدَّرُّ يقطعه جفاء الحالب وقال أشرف جنس الإنسان : «علو الهمة من الإنسان»[(٢)] .

فالرأى السديد عندى والذى بلغ إليه جهدى ، إنفاذ هذه العزيمة وسلوك طريقها القويمة ، وإبرازها من مكان القول إلى ظواهر العمل والحَوْل ، والاعتماد على ما قيل :

---

(١) أى خرجت من تحت أيديهم .
(٢) الحديث تقدم .

فـلاُ تثْـن عزمـك خـوفَ القتـال بسُـمْر دقـاق وبيـض حـداد
عسـى أن تنـالَ الغِنَـى أو تَمـوت فعـذرُك فـى ذاك للنّـاس بـادِ
فـإن لـم تنـل مطلـبا رُمْتَـهُ فليـس عليـك سـوى الاجتهـاد

فأقبل الملك على المقبل ، وقال : توجه بكليتك على وأقبل :

ولا تُبْـقِ مجهـودا برأيـك إنـه سـديد ومـن يقـف السـديد سديد

فإن القلب قد مال إلى العزم والأخذ فى التوجه بالحزم ، وترجح جانب الوثوب إلى جهة هذا المطلوب ، فامعن النظر وأجل قداح الفكر ، ولا تخف رأياً يسنح فى أى جهةُ ترَجّح ، فقال : أفعل بشرط أنُ يقبل ، اعلم زادك الله علماً وفضلاً وكرماً وحلماً ، أن الذى رآه العلماء وأشار به ذو الحنكة من الحكماء ، أن من طلب وفور خيره وفائدة نفسه فى مضرة غيره ، لا يتمتع بتلك الفائدة ولا تثمر معه تلك العائدة ، وهذا على تقدير حصولها والاستيلاء على فروعها وأصولها ، وإن لم يظفر بها فلا تستفيد النفس غير كربها ، مع زيادة الحسرة وسوء الصيت فى الشهرة ، ووفور الندم وزلة القدم ، وكل من أراد تمشية هواه ولم يلتفت إلى ما سواه ، ورأى نفسه أحق من غيره فلا تطمع أبداً فى خيره ، ولا يكاد يسلم من الإنكاد ، ولا يصفو له زمان ولا تدوم له أخلاء وإخوان .

ولاتزال ديَم[(١)] الهموم من غمام الغموم ، تهمى[(٢)] على حدائق آماله وتسقى مزارع أحواله ، إلى أن تحظل[(٣)] نخلات نيته وتيبس حقول طويته، ويحصده حراث الفنا ، ويدرسه دارس الردى ، ويذرى حبات وجوده الهوان

---

(١) سحب الهموم .
(٢) تمطر .
(٣) أى تتوقف .

فى الهوى ، وينقل عن بيدر الشقاء[١] إلى طاحون البلاء ، فهناك يجدح[٢] سويق أفعاله ما يزيغه ، فيحسوه ويتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويصهر به ما فى البطون ويقال له ذوقوا ما كنتم تكسبون ، هذا وإذا كان الدخل لا يفى بالخرج، وخيف من ذلك وقوع هرج ومرجَ فبحسن التدبير يتصرف الملك الخبير ، وبكفاية الوزير ، وتوفير المشير ، يجل الحقير ويكثر النزر اليسير ، كما قيل:

قليلُ المالِ تُصلِحُهُ فيبقى ولا يبقى الكثُيرُ مع الفسادِ

وبالخلق الحسن وحسن السياسة تملك رقاب أولى الرياسة ، فضلا عن العوام وهذا بحسب المقام ، ولا يتصور أن مجرد المال هو شبكة صيد الرجال ، فإن حفظ الممالك هو وراء ذلك ، وقد قال رسول خَلاَقِكُم «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»[٣] . وشىء يحتاج فى تحصيله ، والانقطاع إلى وصوله إلى بذل أموال وأرواح وكد نفوس وأشباح ، وإتعاب خيل ورجال وارتكاب شدائد وأهوال ، وبعد حصوله يتكلف فى محافظته وحراسته وملاحظته ، إلى تحمل هموم وغموم وكلام وكُلوم[٤] ، وآخر الأمر يخرج من اليد ولا يبقى إلا النكد والكد ، فتزول فى الدنيا اللذات مع معاناة الكدورات ، وتجرع الغصص والمشقات ، وتبقى فى الآخرة التبعات لجدير بأن لا يلتفت إليه ولا يعول عليه ، ولا يهتم له بشأن ويستغنى عنه وإن احتج إليه بقدر الإمكان ، وإلا فمثل الذى يعلق به فؤاده ويربط بدوامه وبقائه أعتقاده ، ويتصور ذلك بفكره الفاسد نظره الكاسد ، كمثل كسرى لما مات ولده ، وتفتتت عليه كبده ، وحصل له عليه الاضطراب ، ورده عن خطئه البهلول[٥] إلى الصواب ، فسأل أبو الحجاج أخاه المحجاج عن بيان هذا الأمر، وكيفية إطفاء هذا الجمر .

---

(١) البيدر : المكان الذى يدرس فيه القمح والحبوب .
(٢) اجتدح السويق : خلطه ولتّه .
(٣) الحديث ذكره العجلونى فى كشف الخفا (٢١٧/١) وقال : رواه الحاكم والبزار .
(٤) جروح .
(٥) البهلول : كلمة فارسية تعنى الضّحاك ، أو البهلوان وكان من جملة حاشية الملك .

[٦٢] **فقال المقبل** : ذَكر محدث معدل ، أن كسرى كان له ولد ، قد سكن منه سويداء الخلْد ، يخجل البدر ليلة تمامه ، ويستميل الغصن حالة قيامه، وكان يحبه حباً جاوز النهاية وتعدى الحد والغاية ، وكان لشدة شغفه استبعد حلول تلفه ، بل أحال وفاته ، وأذهله عن درك الحق وفاته ، فأدركه الأجل المحتوم واستوفى مداه المعلوم ، فاضطرب كسرى لموته واضطرم ، واصطدم بصخور فراقه واصطلم(١) ، ولم يقر له قرار ولا طاوعه اصطبار ، فوعظه العلماء فما أفاد وثبته الحكماء بضرب الأمثال فأعياهم المراد .

وكان في بلده رجل بهلول يتردد إليه ويدخل في أكثر أوقاته عليه ، فيلاطفه في محاوراته ، ويبتهج بكلماته في مخاطبته ، فدخل عليه البهلول وهو كئيب ملول ، لا تسر حاله صديقاً ولا يهتدى إلى السكون طريقاً ، فسأله عن حاله وما أوجب توزع باله وتغير أقواله .

فقال : يا بهلول عدمت ولدى وقرة عينى ، وراحة روحى وجسدى :

لا صَبْر يُجدى على فراقِه ... ولا مُعِينٌ على اختراقه
أوّاه من فرقة الأحباب أوّاه ... لقد كَوَى من حَشَا قلبى سويداه

قال البهلول : نعوذ بالله من ساعات الذهول يا ملك الأنام ، إن عيسى عليه الصلاة والسلام ، شكا إليه بعض حوارييه شيئاً يشابه ما أنت فيه ، فقال عليه السلام : كن لربك كإلف الحمام يذبحون فراخه ولا يفارق مناخه ، ولا ينفر عنهم ولا يشكو منهم .

ثم إن البهلول قال : وأنا لى إليك سؤال فأجبنى بجواب شاف ، فإنك ذو ألطاف ، فلايكن فيه خراف .

---

(١) وانقطع إلى الأبد .

فقال : سل فكلامك لا يُمَل .

قال : أكنت ترجو أن ولدك لا يموت أبداً وأنه يصير فى الدنيا مخلداً .

فقال : لا ولكن أردت أن يبقى مده ويتمتع بشبابه وبنعيمها عنده ، ويلتذ بطيب المآكل والمشارب ، ويقضى من أوطار الشباب المآرب ، ويؤنس أنداده وصحبه ، ثم يقضى بعد ذلك نحبه .

قال : هب أنه عاش مهما رُمت ، وقام وقعد فى الدنيا كما قعدت وقمت، وعاش العيش الطيب وهمى عليه من سما ملاذِّها الوابل الصَيِّب ، وحصل له من العيش الهنى والعمر السنى ، أمثال الجبال وأعداد الرمال ، فعند مفارقة العيش وحلول الخفة والطيش ، هل يدفع عنه ذاك شراً ، أو يرفع عنه بؤساً وضراً ، أو يجلب به منفعة ، أو يذهب من ذلك شيء معه ، أو يفيده أدنى فائدة أو يعود عليه منه عائدة .

قال : لا. قال : فلا تأس على معاش يكون عقبى أمره إلى لاش[1] ، وعمر ذاك مصيره سواء طويله وقصيره ، وكثير تنعمه ويسيره :

وإذا كانُ مُنتَهى العمُر موتاً ... فسواءٌ طويلُه والقصيرُ
فَعِش ما شِئْتَ فى الدنيا وَأدْرك ... بها ما شئت من صِيْتٍ وصَوْتِ
فَحَبل العمرِ موصولٌ بقطعٍ ... وخيطُ العيشِ معقودٌ بموتِ

فهب أنه عاش ونهب الملاذ وحاش ، وعلا فى أرض التنعم وغلا وجاش، كل ذلك فى المقدار على حسب ما تختار ، وأنه جاءه القضا وقرقض وطره ومضى ، ثم قضى نحبه وقضى ، فجبر بهذا الكلام كسراً ، وسرى عنه همه وأسرى ، وقال : الآن سكنت فنعم الناصح أنت .

---

(١) إلى لا شيء .

وإنما أوردت هذا التنبيه ، أيها الملك النبيه ؛ لأعرض على الخواطر السعيدة والآراء السديدة الرشيدة أن الاقتصار عن هذا أولى .

وأليق بالركون تحت إرادة المولى . قال المدبر المفتن المعبر : ثلاثة أشياء ينبغى لطالبها أن لا يفتكر فى عواقبها .

الأول : الأسفار فى البحار والغوص فيها إلى القرار ؛ فإن طالب الجواهر النفسية ، ومن قصد أن يكون فى صدر التجارة رئيسة ، لا يخشى من الغرق ولا عنده من ذلك فرق ، فهذا يعبى بضائع المال ، وذاك يغطس إلى قعر الأوحال ، وكل منهما لا يتفكر فى العاقبة والمآل .

الثانى : المقدم على الحرب والرشق والطعن والضرب ، ومصارعة الأبطال ومباشرة أسباب القتال ، لا ينزعج لصوت ولا يفتكر فى الهزيمة والجراح والموت .

والثالث : طالبُ الرياسة والملك ذى السياسة ، لا يفتكر فى الاقتحام ، ولا يتوانى فى الإقدام ، ولا يتأمل فى العواقب ولا يلتفت إلى المناقب ، ويلقى نفسه فى الأخطار ويضرب إلى أعماق الأقطار ، ويجعل جُلَّ همّه بلوغ الأوطار وقيل :

بقَدْرِ الكَدِّ تُكْتَسَبُ المَعَالى ... ومن طَلَبَ العُلى سَهِرَ اللَّيالى
تَرُوم العِزَّ ثُم تَنَامُ ليْلاً ... يغوصُ البَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللآلى
إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عزمةً ... ونَكَّبَ عن ذكرِ العواقبِ جانبا

قال الحكيم ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور : ١٥] أولوا الألباب المميزون بين الخطأ والصواب ، الناظرون من مبتدأ الأمور فى أعقابها ، المستبصرون قبل وقوعها فى مآلها ومآبها ، الآتون بيوت النوائب والنوازل من أبوابها ، قالوا : إذا تحصن أبو الحصين ، وأغلق عليه من وراء

جدار بابين ، ثم حاصره أسد من خارج ساوت قوة الخارج قوة الوالج ، ولا شك أن حركة العساكر وقطع الفيافى والدساكر[١] ، والتوجه إلى قتال من هو ساكن فى سربه ، محتاط فى إقليمه ودربه ، متحصن فى قلاعه ، متدرق بحجفة امتناعه[٢] ، يحتاج فى الأموال إلى إخراج وفى الرجال إلى إزعاج ، وتحمل أخطار وتجشم أسفار ، وأخذ ضعفاء تحت أقدام وهدم دور وقطع أرحام ، ومع هذا كله حصول المقصود موهوم ، والظفر به غير معلوم ، فإن حصل فقد مر أن لا ثبات ولا تمنع ، وإن احتجب فهو وراء ستر التمنع ، فكم من دماء حينئذ تراق وقد كانت مصونة ، وأموال تهدر وقد كانت مضمونة ، وأعراض تهتك وقد كانت محترمة ، وأنفس تذل وقد كانت عزيزة مكرمة ، والحق فى هذا متضح ومن نجا برأسه فقد ربح ، وقد قدمت هذا التقرير وهندست هذا التقدير ؛ لأن العاقل الماهر فى التجارة كما يحسب الربح بحسب الخسارة ، وكل هذا فى العاجلة فضلاً عن المحذورات الآجلة ، من غضب الله وعقابه وتوبيخه وأليم عذابه .

وإذا خرج الأمر عن اليد ودخل على القلب الاشتغال بالنكد ، وذهب المال والمنال ونقصت الأهبة والرجال ؛ وتناقص العُدَد والعَدَد وتناكص المدد، فأى حرمة تبقى للملك عند الرعايا وقد قلت عنهم منه الإرفاد والعطايا، وكيف يستقر ملكه أو يدور على ذلك الثبات فلكه ، فلا تخافه الرعية ولا يرجونه ولايسمعون كلامه ولايطيعونه ، ويصير كالسحاب الخُلَّب[٣] لا يوثق منه بوعد ولا يحصل منه مطلب ، إن تكلم عابوا كلامه ، وإن حكم نقضوا أحكامه ، وإن حلُم قالوا : عاجز ، وإن تقدم فى الحرب قالوا : مجنون مبارز.

---

(١) القرى الكبيرة العامرة .

(٢) أى ممتنع عنهم بالتروس .

(٣) السحاب لا مطر فيه .

وأما الغنى ذو المال فهو على عكس هذه الأحوال ، فإن رأوا منه فضلاً كان لكل مكرمة أهلاً فرفعوه إلى العَيُوق[(١)] ، وكان العظم المرموق ، إن أعطى قليلاً استصغروا حاتماً عنده[(٢)] ، وأطنبوا بلسان الثناء فى شكرهم رفده، وإن بخل قالوا : مُدَبِّرُ لا يضيع ماله ، وإن كذب صدقوا قيله وقاله ، وفى الجملة حركات الغنى مستصوبه وكلماته مترشفة مستعذبة ، وقد قيل :

إن ضَرَطَ الموسِرُ فى مجلس   قيل له يَرْحَمُكَ اللـه

أو عَطَسَ المُعْسِرُ فى مَجْمَع   سَبُّوا وقالوا فيه ما سَاءَ

فَمَضْرَطَ الموسِرُ عِرْنِينَهُ   ومَعْطَسُ المفلسُ مَفْسَاهُ[(٣)]

الفقرُ يزرِى بأقوام ذوى حَسَبٍ   وقدْ يَسوِّدُ غيرَ السيِّدِ المالُ

ولقد رشفت من أفواه الحكماء ونصائح البلغاء ، بل شاهدت من النوائب وتلقفت من ذوى التجارب ، وتحققت فى الدهر أبا العجائب ، أن الفقر شيب الفتيان وسقم صحيح الأبدان ، ومبعد الأقارب وجاعلهم أجانب ، وقاطع الأرحام ومانع السلام ، ومبغض الأحباب ومفرق الأتراب ، ومشتت شمل الأصحاب .

وبالجملة : فالذى يجب على ولى الأمر ، التأمل فى قصارى هذا الأمر، والتفكر فى عاقبة هذه الحركة ، وما يحدث فيها من شؤم وبركة ، وأن يجيل قداح التدبر والتبصر والتصبر ، ويثبت فى صدرها هذا المورد المَضيق وما فيه من مجال أو ضيق ، ولا يعتمد فيه على القوة والحول وأسباب الطَّول والطول ، وكثرة الشوكة والعدد ، وإمداد العدد والمدد ، مع عدم الاكتراث بالأخصام وقلة المبالاة بكل أسد ضرغام ، فإن الأسد سلطان السباع ، وملك

---

(١) العيوق : أحد نجوم السماء المضيئة .

(٢) أى حاتم الطائى وهو ممن اشتهر بالجود والكرم .

(٣) العرنين : الأنف .

عظيم كثير الجند والأتباع ، شجاعته مشهورة وشهامته مأثورة ، به يضرب المثل ويشبه كل بطل ، ونحن وإن كان لنا عساكر كالجبال ، تهدم الحصون وتدك القلال(١) ، لكن ما جربناه مصارعة الأسود ، ولا مارسنا مقارعة النمور والفهود ، ولا نعرف طريق بلادهم ولا طريقة جدالهم وجلادهم ، وأن لهم فى الحروب أساليب وفى افتراس الفرائس أنياب ومخاليب ، فأخشى أن لا تتم هذه الأمور وتقصر حبالنا عن مصادمة ما لهم من قصور ، فيرجع وبال هذه الأمور علينا إذ ابتداؤه أو لاً منسوب إلينا ، ولا نحصل إلا على الندامة والتوبيخ والملامة ويخاطبنا الجد الوبيل بما قيل :

تبنى بَأنْقَاض دورِ الناس مُجْتَهِدا دارَ أسْتَنْقَضَ يوماً بَعْدَ أيَام

وقال المدبر : ولا شك أن جوهر هذا النظام وعقود هذا الكلام ، صادر عن فكر بعيد ، ورأى سديد ، وأمر رشيد ، وتأمل فى العواقب مفيد ، أصله الحكمة ، وفزعه الشفقة ، وزهره المعرفة ، وثمره الفطنة ؛ ولكن من حين استولى على الملك كيومرث ، ومَرَثَ على سرير التحكيم أصبع الولاية أبلغ مَرْثَ وسَنَّ قواعد السياسة وأسس بنيان الرياسة ، وذلك زمان الابتداء ، وأول ما تملك على الدنيا ، وإلى هذا اليوم لم يزل القوم من الملوك فى رَوْم ، وطلب الزيادة والسَّوْم ، ولا عتب فى ذلك ولا لوم ، وقل لى أى ملك مالك ؛ تحكم فى الممالك وسلك فيها المسالك ، ولم يقصد فيها الولايات الشاسعة ولا الأقاليم الواسعة ، ولم يطلب الترفع على الأقران ، وعلو المكان بقدر الإمكان، والملك عقيم والعاجز سقيم .

وكيف يتصور أيها الملك الأكبر أن تكون همة الملك أدنى من همة تاجر فى البحر ينهمك ، فإن التاجر إذا افتكر فى لذة الفائدة وما يعود عليه

(١) الجبال .

العائدة ، وغرته كما يقال التسع أواق الزائدة ، يضع جميع ما له وما تصل إليه يده من خدمه ورجاله ، في الفلك المشحون ولا يرهب ريب المنون ، ويركب هو أيضاً فيه ، ولا يلتفت إلى عجائب دواهيه ، ولا يفتكر في الغرق ولا في جبر السفينة ولو انخرق ، ويسلم قياده إلى متصرف الهواء ونفسه وماله إلى حاكم الماء ، ودونك يا ذا الحشمة والوافر الحرمة ما قاله العاشق العالي الهمة

إن تَهْوَ بَدْراً فليكن ابنَ الخليفة ذى السَّرير
أو ابنَ سلطان الورَى أو ذى الوزَارَة أو أمير
وتجنب الأوْغاد والغوْغا وذَا القَدر الحقير
إنَّ الخَطيرَ هو الذى قدْ قامَ بالأمْرِ الخَطِيرِ

وأما قولكم : عساكرنا أغمار[١] ، لا دراية لهم بتلك الديار ، ولامعرفة لهم بمصادمة الأسود ، ومقاومة تلك الجنود ، فاعلم أيها الوزير الفاضل الكبير ؛ أن الأسد ملك كاسر وعلى سفك الدماء جاسر ، وأن في رعيته من آذاه وأنكاه في ذويه وأبكاه ، وكسره جبراً واسترعاه قسراً واستولى عليه قهراً، فهو منتظر تنفس الزمان ، مترقب انقلاب الحدثان متوقع أيها الفضيل معنى ما قيل :

إذاَ لَم يَكُن للمَرْءِ فى دولة امرئٍ نَصيبٌ ولاَحَظ تَمَنَّى زَوالَيا

فإذا سمع بأحد خرج على الأسد ولو كان أقل الأعوان ؛ فضلاً عن ملك الأفيال ، بل قيل الأقيال[٢] ، الفاضل في ذاته الكامل في صفاته ، العادل في رعيته البارّ بأهل ولايته ، المحسن إلى أهل مملكته ، المشفق الحليم الرؤوف

---

(١) صغار قليلو الخبرة .
(٢) ملك الملوك .

الرحيم ، فبالضرورة يبادر إلى الملاقاة ، ويسارع إلى ما كان يتمناه ، ويغتنم عبودية الملك وبعدها غاية مرتجاه ، فيدل على عورات العدو ومظان عثراته، ويرشد إلى طرائف نكاياته ونكباته ؛ وينادى فى النَّادى نُلْتُ مرادى ، على رغم الأعادى ؛ ويعلن بانشادى للحاضر والبادى :

إذا كانَ للإنسانِ فى دَوْلَةِ امرئٍ نَصيبٌ وإحسانٌ تَمنَّى دَوامَها

وأيضاً فى ذلك الإقليم من هو متشبث بأمر جسيم : وهو ما له من مال وأولاد ، وإقطاعات وعقار ؛ وبلاد وسوائم ومواش ، وأثقال وحواش ، فلا يمكنه التحول عن طريقنا ؛ ولا التحمل لرعودنا وبروقنا ، ولا قوة المقاومة ولا طاقة المصادمة ، فبالضرورة يصانع عن تعلقاته بالطاعة ، ويتشبث بذيل سنتنا مع الجماعة فتستمد بآرائه وروائه ونستفيد فيما نحن بصدده دواء لدائه .

فقال الملك للمقبل : ما الجواب عن هذا الخطاب ، فقال : هذا المقال ، وإن كان لا يخلو عن الاحتمال ووقوعه غير محال ، لكن الأقرب إلى الذهن أن هذا لا يقع ، لأنه مبتدع ؛ ولأن طبائعنا مخالفة لطبائعهم ، وأوضاعنا غير أوضاعهم ، وناهيك أن كلاب الحارة فى النيب والغارة ، يمزق بعضهم بعضاً ويتناحرون فيما بينهم حرصاً وبغضاً ، حتى إذا دخل بينهم ذيب أو حيوان غريب ، توجهوا إليه واتفقوا عليه فمزقوا أديمه[١] وهتكوا حريمه ؛ وجعلوا لحمه لجماعتهم وليمة . وعند الأسد من الوحوش أنواع ما بين سباع وضباع ونمور وذئاب ، وقرود وذباب ، وفهود وكلاب ، كلهم على طباعه ؛ متفقون على اتباعه ؛ وإن اختلفت عليهم الثياب لكن الكل كلاب أولاد كلاب ، وكل من هؤلاء على ماهم عليه متفقوا الأهواء ؛ له على خِصْمِه فى مجادلته وخَصْمِه دربه فى المساواة ؛ ووثبه فى المغارة وأنواع فى الكر والغد

---

(١) جلده .

وروغان فى الخير والشر ، ومداخل ومخارج ، ومدارك ومعارج ، وليس فى عساكرنا سوى الصدمات ، والحطم بقوة النهضات والعزمات ، فإن أفادهن هذا الاصطدام ، وإلا فما ثم إلا الانهزام .

فلما بلغ المقبل فى الكلام إلى هذا المقام، وكان رسخ فى قلب الملك من كلام المدبر الوسخ فما أثر نصح المقبل وما أفاد ؛ لأن النفس بطبعها مائلة إلى الفساد ، فشرع الملك واعتمد على التوجه إلى بلاد الأسد ، وأمر رؤساء فيلة الهنود بجمع العساكر والجنود ، وأشيع ذلك فى أطراف الممالك ، فاطلع على هذه الأحوال غراب يكنى أبا المِرْقال ، كان له وطن وولد وسكن فى ممالك الأسد ، لكنه قدم جزيرة الأفيال للتنزه على سبيل التفرج والتفكه ، فشرع يتأمل فى هذه الأمور ويستنتج من قضاياها ما يتولد من سرور وشرور، فانتهى سابق أفكاره فى ميدان مضماره ، إلى أن هذه القضايا تسفر عن بلايا ورزايا ، وإراقة دماء وخراب أماكن وهلاك رعايا ، سواء تمت للأفيال أو رجعت عليهم بالوبال ، فخاف على سكنه ودمار أهله ووطنه ، فأدى فكره الأسد أن يطلع على ذلك الأَسَدُ ، ليتداركه بحسن آرائه ويعترف للغراب بحسن وفائه .

فبكر بكوره وقصد دوره ، فوصل فى أقرب زمان ونادى الريبال أبا الزعفران ، وقال : الله الله إنى أنا النذير العريان ، وأطلع الأسد على هذا النكد ، وقرر معه حقيقة الأحوال وما عزم عليه ملك الأفيال ، فتشوشت لذلك الخواطر ، وتصدعت لخوفه الأكابر والأصاغر ، ثم أمر السباع وطوائف الوحوش بالاجتماع مع رؤساء مملكته وأساطين خاصته ورعيته ، وذكر لهم هذا الأمر المهول وما عزم عليه ملك الفيول ، وأذن لكل واحد منهم فى ذلك بما يقول ، فوقع الاتفاق من أولئك الرفاق أن يتفق أعيان كل جنس من الحيوان على رئيس من جنسهم ، يقيمونه مقام نفسهم يرضون بأقواله ويقتفون

آثار أفعاله ، وليكن من أهل الحصافة والكفاية واللطافة والدراية ، والشفقة العامة والمعرفة التامة ، يعقد معهم للمؤامرة مجلس رأى ومشاورة ، فهما وقع عليه الاتفاق وأجمع عليه الرفاق ، واستصوبه الأسد وارتضاه اتبعوه وعملوا بمقتضاه ، فتقدمت طائفة الآساد إلى تَاجِ منها نِهادٍ[١] ، سبْعُ يسود على طوائف الأسود ، طالما افترس الأقران وانغمس فى دماء الشجعان ، وأضاف جوارح الصيد فضلات ما افترسه ، من عمر وزيد ، كاسر ، جاسر، باسل ، باسر ، حاسر ، قاسر ظاهره أَبِىّ وباطنه بالمكر غنى :

أسدُ يسودُ على الأسودِ زَئيرُه ... رعدٌ وعَيناهُ بروقٌ تَخْطِفُ

فقدموه واختاروه واستشاروا رأى رأيه وامتاروه[٢] ، واختارت النمور نمراً يمور ، سريع الوثبة بديع الضربة ، لطيف الحركات خفيف النهضات ، قوى الشماس[٣] خفى الاختلاس ، كثيراً ما كسر أسامة[٤] وسامى أسود خِفَان فأسر ضرغامه كما قيل :

نَمِرٌ تخاف الأُسْدُ مِنْ وَثَباتهِ ... وتَحَارُ فى حَركاتهِ وثَبَاتهِ

وقدمت الثعالب ثعلبا لطيف الروغان ظريف الزوغان ، خفى الحيل قوى الميل ، طالما فر من طبل وأهال على الصياد من أهوال ، وأحرق السلوقيات[٥] سلاحه ، ونفذ فى غالب الأسود بالمكر سلاحه .

يُضِلُّ بنىَ سَلُوقٍ من دَهاءٍ ... فَيَخلُصُ من مخالِبِها سَلِيماً

---

(١) أى أسد قوى عال الهمة .
(٢) أى اجتذبوا رأيه وصوبوه .
(٣) الافتراس .
(٤) أسامة : من أسماء الأسد .
(٥) الكلاب .

واعتمدت الذئاب فى هذا الباب على ذئب ، فعله عجيب وأمره غريب ، سديد الختل والختر(١) ، شديد المكر والكَسْر ، طالما أفسد ثلة ، ودخل فى قطيع ماشية فقطعه كله ، يعجز الأسود والنمور والفهود ، شيمته الغدر والخديعة ، ودأبه المكر وسوء الطبيعة :

وقَدْ جَمَعَ الضِّدين نَوْما ويَقْظَةً   يَخَافُ الرَّزَايَا فَهو يَقْظَانَ نَائِمُ

فاختلى بهم أبو الأشبال وشاورهم فيما دهمه من الأهوال ، وتوجه بالخطاب إلى الأسد وقال : ما رأيك فى هذا النكد ؟ فقال : لا تطلب النصر فى هذا الحصر إلا من مالك العصر ، ومصرف أحوال الدهر بين الفرج والقسر ، وهو الله سبحانه وتعالى وعز شأنه وجل جلاله ، فإنا مظلومون وهم ظالمون ، ونحن ما اعتدينا عليهم ولا تقدمنا بالظلم إليهم، فسيرد الله كيدهم فى نحرهم ، وسيحيق بهم عاقبة مكرهم ، وهذا أمر مقرر وأظنه هو المقدر ، وأما ما يتعلق بنا وبهم من الفرار والصلح أو حربهم ، فأذكره على التفصيل وأخبر فى ذلك الرأى الجميل ، أما الفرار فلا سبيل إليه ولا معول أبدا عليه ، وأنَّى ذلك وهو عيب ما وصمت به الأسود ، ولَا لهم به وصف معهود ، وبنا يضرب المثل فى الشجاعة والبسالة ، وتتشبه بنا الأبطال فى الإقدام لا محالة ، وكيف نترك بلادنا وأهلنا ، وأولادنا من أول وهلة ونعزم على الرحلة ، ولا صادمناهم ولا أوقفناهم ، ولو فعلنا ذلك فهربنا ، وتركنا مالنا وذهبنا ؛ لفسدت أمورنا وخربت ممالكنا ودورنا ، ولانفرط نظامنا ، وتَعَوَّجَ قوامُنا ، واستمرت هذه الملامة إلى يوم القيامة ، ولدام علينا هذا العار، ولا يقر لنا بعد ذلك قرار . واعلم أيها الملك نوَّرَ الله وجه السرير بك، أن العمر السنى ما مر فى العيش الهنى وقد قيل :

ما العمرُ ما طَال به الدُّهورُ   العُمْرُ ما طَابَ بِهِ السُّرورُ

---

(١) شديد الغدر .

والعمر الذى يمر فى نكد لا يحتسبه من ذوى الكفاية أحد ، وحسبك ما ذكره المترجم من حكاية الملك المعزول مع المنجم ، فسأله أبو الأشبال سرد هذا المثال .

[٦٣] **فقال الأسد** : ذكر القائل أن أهل بابل كانت عادتهم فى دينهم ، وسلوك طريقهم مع سلاطينهم ، أنهم إذا اعتنوا بشخص ملّكوه واتبعوا طريق أمره وسلكوه ، وبذلوا فى طاعته ما ملكوه ، فإذا أرادوا عزله تركوه ، ونشزوا عنه وفركوه ، وأهملوا إحسانه وفذلكوه[١] ، وسكنوا غيره فى سرير الملك وحركوه ، فاتفق أنهم ولّوا واحدا وأحزوه ونصروه ثم خذلوه ، وأقبلوا عليه أولا ثم قتلوه ، وكانت مدة ما بين ذلك يسيرة ، وعمر أيامه فى ولايته قصيرة ، فحصل له أولا السرور ، ثم تراكمت عليه بالعزل الشرور ، فاحتوشته[٢] الفكر وبات يصارع القضاء والقدر .

ثم قال : لو راقبت فى أول الجلوس ما فى الطالع من سعود ونحوس ، ثم اخترت لساعة ارتقائى وقتا يطول فيه بقائى ، وذلك يكون نجمى فى برج ثبت لما انقلبت كواكب سعدى عن الاستقامة ولا نَبَتْ، ولكن حيث فات ذلك فى الابتداء فاندراكه فى الانتهاء ، فلعل ذلك يفيد ويردنى إلى سرير السرور ويعيد ، ثم طلب منجما حاذقا ماهرا فى صنعته فائقا ، وقال : انظر فى طالع جدى وتأمل برج نحسى وسعدى ، واختر لى ساعة يصلح فيها النزول عن السرير ويكون العود إلى السرير بواسطة الناظر إليها غير عسير ، فإن الناظر إلى الطالع هو الجالب والمانع ، فامتثل المنجم ما رسم ، وشرع فى وضع الأشكال والقسم ، ثم قال : أحسن ما نظر فى الطالع المسعود من حين الميلاد فإنه أول الوجود ، فإذا أخذ الطالع من ساعة الميلاد ؛ ترتب عليه ما

---

(١) أى عرفوا ديته .

(٢) أى تكاثرة عليه الهموم من كل جانب .

يصدر على ذلك المولود من السعد والإسعاد ، ومن الخوف والرجاء فى عالم الكون والفساد ، فهل أطلع الملك فى أى ساعة وجد وكم أتى عليه حين ولد ؟ قال : نعم أعرف مدة عمرى جزما وهى اثنان وعشرون يوما ، فتعجب المنجم من مقاله ولم يقف على حقيقة حاله ، فقال : ليوضح الملك ما أشار ؛ لأقف على حقيقة هذه الأسرار ، فقال : مدة استيلائى على السرير ، هو هذا القدر اليسير ، وأنا لا أحسب العمر ، ولا أعتد بوصال بِيْضٍ ولا سُمْرٍ ، إلا هذه الأيام والليالى ، ولا أحتسب سواها عمرا ولو بيع باللآلئ ، وقد قلتُ :

وعمرُ مضى بالهَجْر لستَ أعِدُّه ولكننى أقْضِيهِ فِى زمنِ الوَصْلِ

وإنما عرضت يا بطل على رأيك السعيد هذا المثل ؛ لتعلم أن أيام المحنة لا تعد عمرا ، ولو قضى الإنسان فيها زمانا طويلا ودهرا ، وأما الصلح ياذا الركون فعلى أى وجه يكون، ومن أين يقع بيننا وبينهم اتفاق وسكون ، وليسوا من جلدتنا ولاعلى ملتنا ، وفى أى عصر وأوان ذل الأسد واستكان وخضع للفيل ودان ، أو أعطى الغضنفر النبَّاج[(1)] ، والضرغام الصعب التاج لغيره الجزية والخراج ، وهو فى الحقيقة سلطان الوحوش ووهَّاب التاج ، فلم يبق إلا الاستعداد للمصادمة ، والتأهب للمقاحمة والمقاومة، ولنا من ذلك فى البين إحدى الحسنيين ، إما الظفر بهم وهو المرام، وإما الشهادة فنموت ونحن كرام ، وقد قال السيد السديد : «من قتل دون ماله فهو شهيد»[(2)] . وقيل ما حاتم طى : حسن الثناء على الميت خير من سوء الثناء على الحى ، والموت فى مقام العزة مع النشاط والهزة ، أرفع من الحياة بذلة ووخزة وكسرة ونخزه[(3)] ، وقد كنت أنشدت وقديما أرشدت :

---

(١) شديد الصوت .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الديات ، باب ما جاء من قتل دون ماله (١٤١٩) وقال : حديث حسن .

(٣) وألمه .

هو الموتُ إنْ لم تَلْقَه ضَاحِكاً فَمُتْ عَبُوساً بوجْهِ أقتَر اللون غُبَّرا
ومَنْ لم يَمُتْ فى مُلتَقى الخَيلِ مُقْبِلاً عزيزا يَمُتْ تَحتَ السَّنَابِكِ مُدْبِرا

فأقبل الريبال على أبى مرسال وقال : أيها النِّمِر وصاحب الخلق الزِّمِر[١] ، ماذا تشير فى هذا المهم والمشكل الذى دهم ، فقال : إن الأفيال أكبر جسوما وأعظم حلوما ، وأقوى فى الضرب وأعدى فى الحرب ، وقد استعدوا وأقبلوا وأتقنوا أمورهم وأعملوا ، وأنا أخشى أن يكونوا أقوى بطشا وأن نعجز عن المقاومة فى المصادمة ، فإن فينا العاجز والضعيف ، والذميم الجثة والخفيف ، ومن لا عرف الأفيال ولا رأى تلك الأشكال ، فينفر من مصادمة الجبال فيطؤننا تحت أخفافهم ، وتتكسر شوكتنا فى أول مصافهم ، فلم يبق إلا الفرار ولا يقر لنا بعد ذلك قرار ، فيستولون عنوة وقسرا على هذه الديار ، وينفرط النظام ونرضى عند ذلك بالسلامة والسلام ، ونقع فى البلاء العريض الطويل وانظر يا مولاى إلى ما قيل :

هَنْ لِلْحَرَائِر من صَوْنٍ إذا وصَلَتْ أيدِى الرِّعاءِ إلى الخِلْخَالِ والخَدَمِ

فعندى الرأى ذو الأصالة ، أن ينتخب الملك من يصلح للرسالة ، ويحسن السفارة ويحسن العبارة ، فيسكن من فورة شغبهم ، وثورة لهبهم ، وسورة غضبهم ، ويعدهم ويمنيهم ويحسن التقريب ويقصيهم ، وفى ضمن هذه الأوقات وأثناء هذه الحالات يراقب أوضاعهم ، ويخبر جمعهم وأجماعهم ، ويتوصل إلى أسرارهم ، ويواصلنا بأخبارهم ، ويطلعنا بما خامر أفكارهم ، ويكتب ما قدموا وآثارهم ، ونستمر على المراسلة والمقاولة والمطاولة ، فإن تيسر رجوعهم وانكشف بالهوينا جموعهم ، وإلا فنكون قد استعددنا عن الاستبصار ، فنتعاطى أمور قتالهم بعد التأمل والاختبار ، وإن أمكننا أن نأتيهم

---

(١) السريع الغضب .

بالليل ونحل بهم الدواهى والويل ، بعد أن يركنوا إلى جانبنا ويأمنوا من نوائب مصائبنا ، فربما نصل إلى بعض القصد ، أو يوافق بعض حركاتنا السعد .

فالتفت الدوكس[١] إلى العلمس[٢] ، وقال : أى سِيْدِ وذا الأمر الرشيد ماذا ترى فيما طرأ ، وكيف طريق القوم فيما جرى .

قال السمسام[٣] : يا مولانا الضرغام ، الذى سمعته من أولى التجارب وتلقفته من الأصحاب والأجانب ، أنه من التوفيق إذا ابتلى الشخص بعداوة من لا يطيق ، أن يدافعه بالهدايا والتحف ويحابيه بشىء من الطرائف والنتَف[٤] ، فإنه قيل فى الأمثال : أن خير الأموال ما ادخر لدفع البوس ، ووقيت بنفائسه النفوس .

فأهَبَّ النهاب بأبى وثاب : يا أبا الحصين ما رأيك فى البين ، وأى آراء الأصحاب أقرب إلى الصواب ، فتقدم الثعلبان وتكلم فأبان وقال : أسعد الله الأحد مولانا الأسد ، وجعل رأيه الأَسدَّ ، وفعله على أعدائه الأشد ، اعلم أيها الدلهاث[٥] أن أمورنا لا تخلو عن إحدى ثلاث : إما المقابلة بالمقابحة ، وإما المهادنة والمصالحة ، وقد تقرر فيما تقدم وتحرر بيان كل منهما ، وما يصدر فيهما وعنهما ، وإما الفرار وتولية الأدبار ، وترك الأوطان والديار فأف لذلك من عار وسبة وشنار[٦] ، فما بقى إلا الحالة الثالثة ، وهى بعساكرهم عابثة

---

(١) الأسد .

(٢) الثعلب .

(٣) الثعلب .

(٤) الأطعمة ، وهو ما ينتف بأصبعك من نبت .

(٥) الجرىء .

(٦) العار .

obeikandi.com

ولقلوبهم كارثة ، وهى طريقة الاحتيال ، والتوصل إلى لقائهم بطرائق المكر فى جب الوبال ، فإن صائب الأفكار يعمل مالا يعمله الصارم البتار ، فبشباك الحيلة تصاد كل فضيلة وتهون كل جليلة ، وأنا أفضل ما أجملت وأبين ما فصلت ، أما المقابلة والأخذ فى أسباب المقاتلة ، فلا طاقة لنا به ولا باب لدخول قبابه ؛ لأنا عاجزون عن المصادمة ، قاصرون عن المقاومة ، محتاجون إلى الطعام والشراب ، وبعض عساكرنا لا يعيش إلا باللحم والكباب، وجيشهم الذى قد ملا وسد الوهد والفلا ، يقنعون بالحشيش والكلا ، فلا يتكلفون لحمل زاد ولا يحتاجون إلى عدة وعتاد ، وأيضا أحوال عساكرنا المفرقة المضمونة لاختلاف أجناسها وأنواعها غير معلومة ، فلا اعتماد عليهم ولا يتحقق الركون إليهم ، فإنهم أجناس مختلفة وطوائف غير مؤتلفة، وبينهم معاداة وفى جبلتهم النفرة والمنافاة ، وبعضهم غذاء بعض وفى قلبه منه عداوة وبغض ، لو ظفر به كسره وأكله وإن استنصر به خذله ، فهم كالقفل المجمع ولون اتفاقهم ملمع ، وأما عساكر الأفيال فبينهم اتفاق على كل حال لأنهم جنس واحد ، وما بينهم مخالف ولا منا كد ، ولهم اعتماد على قوتهم وعلى اتفاقهم وشوكتهم ، والمعتمد على مثل عساكرنا إن لم يضبط بطريقة كلية أمر عشائرنا ينفرط أمره ، ويخمد فى ايقاده نار الحرب جمره ، ويعلوه من بحر النوائب غمرة ، ويظفر به من أعدائه زيده وعمره ، ويصيبه من الحِطّة ما أصاب الصياد من القطة ، فسأل أبو الحارث عن بيان هذا الحادث .

[٦٤] **قال الثعلب** : ذُكِرَ أن رجلا ذا كيد كان مغرما بالصيد ، وكان عنده قط صياد يجترئ على النمس والغيَّاد[(١)] ، فكان يوما بين يديه ، فمر عصفور عليه فطفر كالنمور وحصَّل من الهواء العصفور ، فأعجب به

---

(١) ذكر البوم .

صاحبه ، ثم قصد الصيد وهو مصاحبه ، وحمله تحت إبطه وبالغ فى حفظه وضبطه ، وركب جواده وتوجه يروم اصطياده ، فرقى سفح جبل فخرج من وراء صخرة ، طائفة من الحَجَل[١] ، فتوجه إليه وألقى القط عليه ، فطار الطير وخاف القط وقصد رجوعه إلى تحت الإبط فطفر إلى جبهة الجواد ، وأنشب فيها مخاليبه الحداد ، فجفلت[٢] الفرس من لقطه ، وخبطت بفارسها الأرض شر خبطه ، أزهقت فيها نفسه وأبطلت حسه .

وإنما أوردت هذا المثل ؛ ليحترز أيها البطل فى هذا الأمر من وقوع الخلل ، ويتفكر فى أمر هؤلاء الجماعه وكيف ثباتهم فى دعواهم السمع والطاعة ، فإنهم لا يصلحون للقتال خصوصا مصادمة عساكر الأفيال ، فالملك لا يعتمد على مثل هذا العسكر ؛ اللهم إلا أن يتقرر أمرهم على صدق اللقاء ويتحرر . وأما ما ذكره مولانا أبو سهيل فى تبييت عساكر الأفيال بالليل، فهو رأى معتبر ولكن فيه نظر ؛ لأن ذلك إنما يكون إذا كان العدو فى سكون ، وعن توقع النكبات فى ركون ، فبينما هم فى غفلتهم ذاهلون ، جاءهم بأسنا بياتا وهم قائلون ، وأما إذا كانوا مستعدين يقظين مجدين ، وقد توجهوا للقتال وانتصبوا للمناضلة على هذه الحال ، فلا شك أنهم أتقنوا أمرهم وأخذوا أسلحتهم وحذرهم ، فأعدوا لكل نائبة نابا ولكل نائفة[٣] بابا ، ولكل حرب حِرابا ، ولكل ضرب ضرابا ، ولكل شِدّة شَدّة ، ولكل عِدّة عُدّة ، ولكل جَزّة جمزة[٤] ، ولكل وفزة فزة ، ولكل نفرة طفرة ، ولكل فَرّة كرة ، ولكل أزمة حزمة ، ولكل كسرة حزمة ؛ فربما يكونون افتكروا منا هذه المكيدة وأعدوا فى مقابلتها داهية تصيرنا لها مصيدة ، فنتوجه إليها غافلين فننشب فى شركها

(١) الحجل ، مفردها حجلة : طائر يعيش فى قمم الجبال .

(٢) فزعت ونفرت .

(٣) أى لكل أمر جد يصعب حله ؛ مخرج .

(٤) أى لكل صوف وشعر علا ، يحتاج للجز .

ذاهلين ، فيصيبنا من النكال ما أصاب الجمل من الجمال ، فقال الريبال هات يا أبا الترهات ، أخبرنا يا أبا نوفل ، أخبار الجمل المغفل.

[٦٥] **قال** : كان جمّال فقير ذو عيال له جمل يتعيش عليه ، ويتقوت هو عياله بما يصل منه إليه، فرأى صلاحه فى نقل مِلْح من المَلاَّحَة ، فجد فى تثقيل الأحمال وملازمته بأثقال الأثقال ، إلى أن آل حال الجمل إلى الهزال وزال نشاطه وحال ، والجمال لا يرق له بحال ويجد فى كده بالاشتغال . ففى بعض الأيام أرسله مع السَّوَام[(١)] فتوجه إلى المرعى وهو ساقط القوة عن المسعى ، وكان له أرنب صديق ، فتوجه إليه فى ذلك المضيق ودعاه وسلم عليه وبث عظيم اشتياقه إليه .

فلما رأى الخَزَزُ[(٢)] هزاله ، تألم له وسأله أحواله ، فأخبره بحاله وما يقاسيه من عذابه ونكاله ، وأن الملح قد قرحه وجبَّ سنامه وجرحه ، وأنه قد أعيته الحيلة وأضل إلى الخلاص سبيله ، فتألم الأرنب وتأمل وتفكر فى كيفية عصر هذا الدّمل ، ثم قال : يا أبا أيوب ، لقد فزت بالمطلوب وقد ظهر وجه الخلاص من شرك هذا الاقتناص ، والنجاة من الارتهاص والارتصاص[(٣)] ، تحت حمل كالرصاص فهل يعترضك ياذا الرياضة فى طريق الملاحة مخاضة ، فقال : كثير ، وكم من نهر وغدير .

فقال : إذا مررت فى خوض ولو أنه روض أو حوض ، فابرك فيه وتمرغ وتنصل من حملك وتفرغ ، واستمر فيه يا أبا أيوب فإن الملح فى الماء يذوب ، وكرر هذه الحركة ، فإنك ترى فيها البركة ، فإما أنهم يغيرون حملك أو يخففوه بذوبه من الذى أضعفوه ، فتحمل الجمل للأرنب المِنَّة وشغف

---

(١) الراعى الذى يتكفله ويرعاه .

(٢) ذكر الأرنب .

(٣) الارتهاص والارتصاص : الوهن والضعف .

بِدُرِّ هذه الفائدة أذنه ، فلما حمَّله صاحبه الحمل المعهود ودخل به في طريقه المورود ، ووصل إلى المخاضة برك فضربوه ، فما قام ولا احترك ، وتحمل ضربه وعسفه[1] حتى أذاب من الحمل نصفه ، ثم نهض انتهاضة وخرج من المخاضة ، ولازم هذه العادة ، إلى أن أفقر صاحبه وأباده .

فأدرك الجمَّال هذه الحيلة ، فافتكر له فى داهية وبيلة ، وعمد إلى عِهْنٍ منفوش[2] ، وغير فى مقامرته شكل النقوش ، وأوسق للجمل منه حملا بالغ فيه تعبية وثقلا : وسلَّط عليه الظما ثم دخل به إلى الما ؛ فلما توسط الماء برك وتغافل عنه صاحبه وترك ، فتشرب الصوف من الماء ما يملؤ البرك ، ثم أراد النهوض فنأى به الربوض[3] ، فقاسى من المشاق ما لا يطاق ، ورجع هذا الفكر الوبيل على الجمل المسكين بأضعاف التثقيل ، فساء مصيره، وكان فى تدبيره تدميره، وما استفاد إلا زيادةَ النَّصَبٍ ، وأمثال ما كان يجده من التعب والوصب .

وإنما أوردت هذا المثل عن الجمل ؛ ليعلم الملك والحُضَّار ، أن العدو الغدار ، والحسود المكار ؛ يتفكر فى أنواع الدواهى ويفرع أنواع البلايا والرزايا كما هى ، ويبذل فى ذلك جده وجهده ولا يقصر فيما اتصل إليه من ذلك يده، فتارة تدرك مكايده وتعرف مصايده ، وتارة يغفل عن دواهيها ؛ فلا يشعر الخصم إلا وقد تورط فيها ، وعلى كل حال لابد للشخص له وعليه من الاحتيال ؛ وأما طلب الصلح وإرسال الهدايا فمن أعظم المصائب وأكبر الرزايا ؛ فإن ذلك يدل على عجزنا والخور ، وينادى على هواننا فى البدو والحضر ، ويجرئ علينا الغريب ، ويذهب حرمتنا عند القريب ، ودونك

---

(١) شدة وتعب العمل .

(٢) أى صار كالصوف المنفوش الذى قد شرع فى الذهاب والتمزق .

(٣) أى كلما أراد النهوض ؛ أقعده التعب .

يا أبا العباس ما أنشدتك فى المقياس :

ومَا أنَا مِمَّــا فَرَّ من نَــارِ خَصِيمِه لَظَلَّ حســودٌ أو إلى فَىء شامِــتِ

ولكن الرأى الأنور أيها الوَرْد[1] الغضنفر ، أن ترسل إليهم رسولا عاقلا فصيحا جميلا ، بصيرا بعواقب الأمور ، قد مارس تقلبات الدهور ، وقد رُبِّى وتَرَبَّى وعن الرذائل تأبَّى ، وبأنواع الفضائل تعبى ، وأحرم إلى كعبة محاسن الشيم ولبَّى ، ولولا أن باب النبوة استد لتنبى برسالة فحلة ، تسفر عن بسالة جزلة ، تتضمن سؤالهم عما أوجب ارتحالهم ، وسبب قصدهم لبقعتنا وتوجههم لدخول رقعتنا ، وما موجب هذا الاعتداء ولم يصدر منا لهم إلا المحبة والولاء ، وحسن الجوار والإحسان إلى الكبار والصغار ، ومعاملة الغريب والقريب بالفضل المجيب والكرم الذى لا يخيب ، ويذكر لهم بسالتنا وشجاعتنا وفى معاملات المضاربة بضاعتنا ، ويكشف لهم فى ملابسة الحرب والضرب صناعتنا ، ويحقق عندهم ما عندنا من أسود الحرب وفوارس الطعن والضرب ، وأجناس الوحوش الكواسر والسباع الجواسر ، وأصناف الفراعل[2] والعسابر[3] ، ويتكلم بكلام يراه مقتضى المقام ، ومناسب للحال ويوسع فى ذلك المجال ، ويميز أوضاعهم وعساكرهم ويسبر بمسبار[4] العقل أمورهم وأوامرهم ، ويسمع الجواب وما فيه من خطأ وصواب ، ويورده إلينا ويعرضه علينا ، فنعمل بمقتضاه وينظر الرأى السديد فيه ما ارتضاه ، ونبنى على ذلك الأساس ونفصل على ذلك القياس .

فاستصوبوا هذا الرأى من الآراء ، وطلبوا له كفؤا من الأكفاء ، فوجدوا ذئبا هو من خواص الحضرة ومن ذوى النباهة والشهرة ، له فى

---

(١) الأسد .

(٢) الفراعل ، مفردها الفرعل : الضبع .

(٣) العسابر ، مفردها العسبر : النمر .

(٤) المسبار : آلة الاختبار .

ميدان الفضائل كر وفر ، وفى مظان النفع والضر خير وشر ، قد جرب فى المصايد ودرب فى المكايد ، وهذب فى المصادر والموارد ، ورتب فى المطارف والمطارد ، أدنى فضائله حسن السفارة ، وإحدى فواضله ترتيب العبارة ، حلاّل المشكلات كشّاف المعضلات ، فوقع عليه اختيارهم ورضى به كبارهم وصغارهم ، فَحَمّله الأسد كلامه وجعل البسملة مبدأه والحسبلة[١] ختامه .

ومن مضمونها بعد إبلاغ التحية والأثنية[٢] السنية إلى الحضرة العلية ، ملك الأفيال أبى مزاحم المفضال ، ألهمه الله هداه ، وصرف عنه رداه ، وبصَّره مواقع الخير وهداه ، ولا شمت به عداه ، وحفظه بالعشى والغداة ، وجعل عقباه خيرا من مبتداه ، نحيط علومه الكريمة وآراءه العلية الجسيمة ، أن قوتنا من قديم الزمان ظاهرة ، وهيبتنا باهرة ، وصولتنا قاهرة، لم نزل نفترس الفوارس ، ونكرم أصناف الأضياف من الوحش والطير بالفرائس ، ويضرب بنا فى الشجاعة والكرم الأمثال ، ويفر من بين أيدينا أسود الأبطال، ولا عار على من فر من بين يدى الريبال ، وقد اتصل بنا أن ملك الأفيال توجه إلينا بجنوده ، وهيأ فى ذلك أجناس عساكره وبنوده ، وما علمنا لذلك موجبا ، ولا تقدمنا بعداوة تنشئ حربا وحربا ، بل ولا تعرضنا لأحد فى ملكه وملكه ، وعدلنا بحمده الله تعالى جارٍ فى بحار المُلْكِ وفُلْكَه ، والرعايا شاكرة منا ، ولم يُنْشَر سوى الذكر الجميل عنا ، فأنعموا برد الجواب وميزوا الخطأ من الصواب ، قبل أن يكشر[٣] الشر نابه ، ويفتح جرابه ويحرش للهرير كلابه ، ويسلخ ليله إهابه ، ويكسر رائد الفتنة بابه ؛ فتتفاقم الأمور وتتعاظم الشرور ، وتتلاطم بحارها وتمور عند التهاب شواظ الغيظ من الأسود والنمور ، مع أن اعتمادنا على الله العظيم ، وتوكلنا على العزيز الرحيم .

---

(١) البسملة ، والحسبلة : نحت خطى ، معناه بسم الله الرحمن الرحيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(٢) الأثنية ، مفردها الثناء : المدح والشكر .

(٣) كشر عن نابه : استعد للقتال .

فلما بلَّغ الذئب الرسالة وأدى ما فيها من شجاعة وبسالة ، وبيَّن لملك الأفيال ما تضمنته من عظمة وجلال ، استشاط ملك الأفيال ، وتغيرت لاضطرابه الأحوال ، ونظر من تلك الفيول إلى فيل ظلوم جهول ، وبدر إليه من غير تدبر ولا تأمل فى الأمور وتفكر ، وقال : اذهب إلى هذا المعتمد على كلامه ، الراقد فى غفلة منامه ، وقل له : متى مارست معركة الشجعان، أو صارعت رجال الميدان ، وأنَّى لك طاقة بمصادمة الجبال ، ومن أين تعرف مقاومة الأفيال ، فاستبق لنفسك فعن قريب تحل برمسك ، واستعد لجنود لا قِبَل لك بها ، فستشاهد ما لم تسمعه من ضربها فى حربها ، فلقد أتاك عسكر القضاء وبنوده ، وليحطمنكم سليمان الأفيال وجنوده ، فليريقن الدماء ، وليستأسرن الحرائر كالإماء ، وليدوسن الأطفال ، ولترين منه الإنكاد والإنكال ، وليظهرن آثار الدمار والبوار بما لك من ممالك ومساكن وديار، وليفعلن بولاياتك ما فعله بممالك الإسلام التتار .

وأنت بين أمرين وبخير النظرين ، إما أن تطيع لأمرنا وتنقاد وتسلم إلينا ما بيدك من بلاد ، وإما أن تختار طرق الفراق والفرار ، وتتجو منا منجا الذباب ، وتتنحى عن طريقنا بما معك من كلاب وذئاب ، وقد بالغنا فى النصيحة بعباراتنا الصحيحة وأقوالنا الفصيحة ، قبل إفشاء الفضيحة.

فوصل الفيل الرسول وأدى هذا المقول ، فتشوش الأسد ، وداخله الغيظ والنكد ، فأراد الإيقاع بالرسول الظلوم الجهول ، ثم تمالك وعن ذلك تماسك ، وقال : لولا أن عادة الملوك ودرب السياسة المسلوك ، أن لا تُهاج الرسل[1] ، ولا تضيق عليهم السبل ، لقابلتك على كلامك الفَجِّ[2] بما يجب من العج والثَّلج[3] .

---

(١) هج البيت : هدمه ، والمعنى : أى لا تقتل الرسل .
(٢) كثير الكلام متشبع بما ليس عنده .
(٣) أى من الريح والمطر .

ثم التفت إلى الثعلب وقال : يا أبا الحصين ما عندك فى جواب هذين النحسين ، قال الثعلب : أنت الأغلب ، هذا القيل أقوى دليل وأوضح سبيل على عدم عقل الفيل ، وأن فكره وبيل ، وبصيرته قد عميت وطرق هدايته قد خفيت ، وأنه غوى وأضل قومه وما هدى ، وكل من اعتمد على قواه وحوله، واستحلى غرور فعله وقوله ، فقد زال وزل ، وفى عقد البلاء حال وحل ، وهذا الجاهل السخيف الكثيف الثقيل الجثة الخفيف ، قد استحقرنا فى عينه؛ فسيرى منا حلول حَيْنِهِ ، وكل من استحقر واستخف بعدوه ، فسيعدم حلاوة هدوه ، وسيُحْرَم مواصلة مَرْجُوُّه .

وقد قالت الحكماء الأخيار والعقلاء ذوى الاعتبار ، وأولوا التجارب والاستبصار : لا تستحقر السقم ، والنوم ، والدَّيْنِ ، والعدو ، والنار ، فالملك أعز الله نصره وأعلى مناره وقدره ، وسلط على الأعداء قهره ، لا يلتفت إلى هذا الكلام ، ولا يتزعزع لهذه الأوهام ، ولا يخف من جهامة الأفيال(١) ، فكل ما هم فيه باطل ومحال ، بل يعتمد على الله العزيز الجبار ، ويصفى نيته بالعدل والخير مع الكبار والصغار ، ويقوى جنانه على الملاقاة وقد وافاه النصر وأتاه ، ولاثاه السعد ولاقاه ، فإن هؤلاء اعتَدُوا على ولايته وأتوها فسينزل الله تعالى عليهم جنودا لم يروها ، فكم من مستضعف حقير صدر منه بالحيلة أمر خطير ، وبحسن التدبير ومساعدة التقدير تم له أمر كبير ، وناهيك قصة الفارة مع رئيس الحارة وما فعلته إذ ختلته ، إلى أن قتلته ، فسأل حيدرة عن تلك المأثرة .

[٦٦] **فقال** : بلغنى أيها النفيس أنه كان رئيس ، ضيق العطن(٢) خسيس ، له زوجة ذات صيانة ودين وأمانة لم تزل تتجنب الخيانة ، وتتعاطى

---

(١) عبوس الأفيال .

(٢) العطن : الجلد وضع فى الدباغ وترك فأنتن .

العفة والرزانة ، وله دجاجة تبيض على الدوام فيسرق بيضتها أبو راشد وهم نيام ، فإذا افتقد الرئيس بيضته طالب بها زوجته ، فتحلف أنها ما رأتها ولا تعرف يدا أخذتها ، فيؤلمها سبا ويوجعها ضربا ، ولا يصدق قولها ولا يرحم عَوَلها[١] ، ففى بعض الأحيان رأت المرأة الجرذان وهو يجر البيضة إلى جحره ، وقد بلغ بها باب وكره ، فدعت بعلها لتريه الفار وفعلها ، فعلم براءة ساحتها وعمل على راحتها ، واعتذر إليها وطلب الفارة وحنق عليها ، وأعمل المكيدة ونصب للفارة دون البيضة مصيدة .

فلما رأت الفارة الشَرَك علمت أن وراءه الدَّرَك[٢] ، فشعرت بما وضع عليه فلم تقدم إليه ، إلى أن زار الجرذان أحد أقاربه من الفيران ، فلم يجد شيئا يضيفه ، فاعتذر إلى الضيف بما هو مخيفه ، وأراه من البيضة سهاد وأن دونها خرط القتاد[٣] ، وكان الضيف الغَرُّ[٤] لا يعرف هِرًّا من بُرّ ، فحمله السفه والحرص والشره ، على أن قال : أنا أخوض هذه الأهوال وأرِدُ من الموت حوضه وأصل إلى هذه البيضة .

ثم قصد المصيدة فقبضت وريده ، وفجعت به وليده ووديده ، فتنكدت الفارة وتكدرت ، والتظت أحشاؤها وتسعرت ، وتألمت لموت ضيفها ، وبلغ جيرانها حديث ضيفها ، فخجلت منهم واختفت عنهم ، وشاعت قضيتها وذاعت بليتها ، فلم تجد لبرد النار سوى أخذ الثار فأخذت تفتكر فى وجه الخلاص ، فرأت أنها لا تخلص من عتب الجيران إلا بالقصاص ، فشرعت فى تعاطى أخذ الثأر من صاحب الدار ، وكان لها صاحبة قديمة عقرب خبيثة

---

(١) الحاجة .

(٢) أقصى قعر الشيء ، والمراد : الموت .

(٣) القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر ، وخرط القتاد : هو إنتزاع شوكه باليد . ويقال : هذا أمر دونه خرط القتاد : أى أن خرط القتاد أسهل منه بكثير .

(٤) الغرور الجاهل .

لئيمة ، معدن السموم فى زبان إبرتها[1] ، وطعم المنايا مودع فى شوكتها ، فتوجهت إليها وترامت عليها . وقالت : إنما تدخر الأصحاب للشدائد ولدفع الضرر والمكائد ، وإنزال الداء بساحة الأعداء ، ولأخذ الثأر والانتقام من المعتدين اللئام ، وقَصَّتْ عليها القصة وطلبت منها إزاحة هذه الغُصَّة ، وأن تأخذ لها بضرباتها القصاص ؛ ليحصل لها بين جيرانها من العتب الخلاص ، فأجابتها إلى ما سألت ، وأقبلت إلى وكر الفارة بما اقتبلت وأخذا فى إعمال الحيلة ، قادت أفكارهما الوبيلة إلى أن تخدعا صاحب البيت بالذهب وتلقياه بذلك فى اللهب .

ثم أمهلا إلى أن دخل الليل ، وشرعا فى إيصال الويل ، فأخرجت الفارة دينارا وألقته فى صحن الدار ، ووضعت آخر عند جحر الفار ، وأظهرت نصف دينار من ذلك الذهب وسترت النصف الآخر عند العقرب، واستترت العقرب بجناح السكون تحت ذيل الكمون[2] ، وقد عَبَّت فى زبانها ريب المنون ، فلما أصبح الصباح ونودى بالفلاح ، وجد صاحب الدار فى وسطها الدينار ، فتفاءل بسعد نهاره ، ولم يعلم أنه علامة دماره ، ففتح عينيه ونظر حواليه ، فرأى عند جحر الفار أخا للدينار ، ففرح وطار ونشط واستطار ، وزاد فى الطلب على بقية الذهب ، فرأى نصف دينار داخل جحر الفار ، فمد يده إليه وأعمى القضاء عينيه عما قدره الله عليه ، فضربته العقرب ضربة قضى منها نحبه ، فبرد مكانه ولاقى هوانه ، وأخذت الفارة ثأرها وقضت من عدوها أوطارها .

وإنما أوردت هذه الأخبار ؛ ليعلم الملك أن حيلة صاحب الأفكار ، تفعل ما لا يفعله العسكر الجرار بالسيف البتار والرمح الخطار[3] ، وبقليل الحيلة

---

(١) قرنها الذى تضرب به وتبث سمها عن طريقه .

(٢) الإختفاء .

(٣) القاتل .

تتم الأمور الجليلة فلا يهتم الملك بجثث الأفيال ، ويشرع فيما هو بصدده من دقيق الاحتيال ، وأنا أرجو من الله تعالى الظفر بعدونا ، وحصولنا على غاية مأمولنا ونهاية مرجونا ، فأول ما نعاملهم بالوهم وإظهار الصولة والتخويف والإرهاب بقوة الدولة ، فإن الوهم قتال والعاقل المدبر يحتال وطائفة الفيول عديمة العقول ، وبالوهم يبلغ الشخص مراده ، كما بلغ الحمار من الأسد ما أراده . فسأل ملك الآساد بيان حكاية أبى زياد .

[٦٧] **فقال أبو الحصين** : أخبرنى أبو الحسين ذو المفاخر ناصر ، أنه كان فى بعض الأعصار والمعاصر ، حمار فى مدار يستعملونه بالليل والنهار، إلى أن حصل له الكِبَر ورمى بالعِبَر ، وابتلى باطنا بالجوع وظاهرا بالدَّبَر[١] ، وعجز عن العمل وانقطع منه الأمل ، فتركه أصحابه وأعتقوه وفى بعض المراعى أطلقوه ، فصار يمرح وفى تلك المروج يسرح ، إلى أن خرج إلى الصحرا وانفرد فى رياض الفلا ، فوصل إلى بعض الآجام وحصل له النشاط التام ، إلى أن صح بدنه وسمن وبرُ أدبره وأمن ، وأخذه البطر واستولى عليه الأشر[٢] ، واستخفه الطيش وطيب العيش ، وسار فى تلك المراعى يتردد ذهابا وإيابا كالساعى ، فيسدى ويلحم فى شقتها ، ويفصل مهما اختار من مزهر خرقتها ، وينهق على عادة الحمير فيملأ تلك الأماكن من الشهيق والزفير .

وكان فى تلك الآجام أسد متخيِّس[٣] ؛ يسمى الشبل ابن المتأنس ، كان أبوه ملك تلك الأماكن ، قد نشا بها وهو فيها ساكن ، شاب غرير لم يكن يعرف الحمير، ولا طَرَقَ سمعه شهيق ولا زفير ، بل ولا خرج من تلك

---

(١) الدبر : قرحة تصيب الدابة من كثرة وثقل الأحمال .

(٢) البطر .

(٣) أى ساكن الخيسة ، وهى موضع الأسد ومكانه .

الآجام ولا عرف تصرفات الأيام، وكان أبوه قتل فى الاصطياد ، وتفرقت عنه العساكر والأجناد فنشا وحيدا يتيما ، واستمر فيها مقيما ، فلما سمع صوت الحمار ، أخذته الرعدة والاقشعرار واستولى عليه الهلع فقعد عن الاصطياد وانقطع ، وصار كلما نهق هرب واختفى من الفَرَق ، وغلب عليه الدَّهَش إلى أن كاد يموت من الجوع والعطش .

وصار الحمار يتردد إلى عين كان الأسد يُسَكِّنُ منها سورة الظمأ ، فما اجترأ بعد ذلك على الورود ، وأُضرَّ به الخوف والانقطاع والقعود ، فلما كاد العطش أن يقتله توجه إلى العين محفهفا[١] بالحيرة والولهَ ، فوجد الحمار واقفا عندها ، وأدرك الحمار خوفه منه بالدهاء ، فتقدم إليه وصوب نحوه أذنيه وحملق عينيه ، فبدر من الأسد صرخة اتبعها من بوله شخة ، وقال للحمار : ايش أنت ولأى شيء ههنا سكنت ، وجعل يرجف وفى قيد الخوف يرسُف[٢] ، فعلم الحمار أن الأسد خَارَ ، فقال بجنان حَرِىّ وبيان قوى : أنا فى هذا المكان أفرق رزق الحيوان ، وقد أقمت أحوش أرزاق الوحوش ، ثم أقسمها بينهم وأملأ جوفهم وعينهم ، فقال الأسد : إنى جيعان ولى مدة عطشان فاعطنى من الأكل رزقى ، وافرز لى من الماء حقى ، فقال بوجه مقطب : ادنو إلى الماء واشرب ، فدنا وشرب وهو خائف مضطرب .

ثم قال : أنا جائع فاطعمنى وعَجِّل ولا تحرمنى ، فلى مدة من الجوع لا قرار لى ولا هجوع ، فقال الحمار : تعال معى إلى موضعى لتعرف مكانى، وتقرر جرايتك[٣] فى ديوانى ، فذهبا فى طريق حتى وصلا إلى نهر ماء عميق فأراد العبور ، فقال الأسد الهصور : هذا الماء عميق وكم فيه من

---

(١) تحيطه الحيرة والوله .
(٢) يمشى .
(٣) الجراية : الراتب .

غريق ، فاحملنى فى الذهاب وأنا أحملك فى الإياب ، فأجابه الحمار وحمله وخاض به ونقله ، فأنشب الأسد الأظفار فى كاهل الحمار ، وثقل عليه فلم يتأثر له ولم يلتفت إليه ، فزاد وهمه من الحمار ، وقال هذا رأس الدعار[1] ثم سارا ساعة أخرى فرأيا فى طريقهما نهرا فطلب الحمار الوثوب ، وقال : هذه نوبتى فى الركوب ، ثم طفر على الأسد وثقل عليه الجسد ، وتمكن عليه وأرخى يديه ورجليه ، فتضرر من ثقله وابتلى بشر عمله ثم تورّك عليه[2] وأنشب فى كاهله مسامير نعليه ، فماج الأسد ومار وقد أثرت فيه حوافر الحمار ، فقال له : اثبت وآلك فما حوّلك تحتى وأحالك .

فقال : يا أخى حيرت فى أمرى لقد أوجعتنى وقصمت ظهرى ، وكان يكفينى جوعى وقلتى وخضوعى ، وما أدرى هذا الضر والبلا من أين أقبلا ، فقل لى ما الذى أنشبته فى كاهلى ونزلت به من حافرك فى ساحلى .

فقال هذه مَسَامِك[3] لطلاب الجرايات والجوامك[4] ، وهى أربعون مسماك لابد أن تثبت كلها فى قفاك ، حتى يترصع لك اسم فى الديوان وإلا فالرزق لا يحصل بالهوينا بل بالهوان .

فقال : يا أخاه اتركنى لوجه الله وارفق بى رفقا وما أريد منك رزقا ، ودعنى بالأمانة ووفِّر الجراية على الخزانة ، ولا رأيتك ولا رأيتنى ، ولا عرفتك ولا عرفتنى ، فإنى أتقوت من حشيش الأرض وخشاشها[5] ، واستعد لمعاد نفسى بالرفق فى معاشها ، فنزل عنه الحمار وتركه وسار ، فهرب منه بعدما ودعه وولى يلتفت يمينا وشمالا لئلا يتبعه .

(١) الدعار ، مفردها الداعر : الخبيث المفسد .

(٢) أى تمكن من جلسته .

(٣) عيدان ترفع بها الخيمة .

(٤) الجوامك ، مفردها الجوْمك : مرتب خدام الدولة العسكرية .

(٥) حشرات الأرض وعصافيرها .

وإنما صورت هذا النقش ؛ لتعلم يا ملك الوحش ، أن الوهم يصدر كالسهم ، وهو عند براهمة الهند[١] وحكماء السند[٢] أحد طرق العلم ، رقاك الله إلى سلم السلم ، والوهم غالب على الأفيال ، بل سهم الوهم يقتل كثيرا من الرجال ، فنرجو من الله أن يبلغنا مقصودنا وننال من طالع الجد والحظ مسعودنا ، وأن يرجع أعداؤنا بالخيبة وفراغ العَيْبَة .

وهذا المثل الذى ضربته ، والتقريب الذى قربته ؛ إنما هو مثل العاجز الضعيف مع القوى العسوف[٣] لا العسيف[٤] ، وأما نحن بقوة الله وحوله ومساعدة نصره وطَوْلِه ، فقوتنا قاهرة قائمة ، وصدمتنا بعون الله دعائمها داعمة ، لم يحصل منا خوف ولا خَوَرُ ، ولا فزع ولا جزع ولا جَوْرُ ، ففينا بحمد الله قوة لمصادمتهم ، وقدرة لمقاومتهم ، فامض لأمرك ، فكأنى بك وقد رجعت فائزا بنصرك ، مجبورا بكسر عدوك ، محبورا بيسرك .

ثم أنه اقتضى رأى أبى الضرغام ، إعادة الذئب إلى أبى مُزاحم ، برسالة مضمونها : بصرك الله بعيوب نفسك ، وأراك عاقبة غدك فى صبح أمسك ، وجعلك ممن اتبع الهدى وامتنع عن موارد الردى ، اعلم أن علماء الهند وحكماء البراهمة والسند ، امتازوا عن حكماء الأقاليم ووضعوا رقعة الشطرنج للتعليم ، وأن واضع ذلك صور الرقعة بصورة الممالك وقسمها بالسوية ، وجعل لكل قسم جنسا من الرعية ووضع له نوعا من السير لا يتعداه ، وبين لكل منهم مكانا لا يتخطاه ، وأنا أخاف أن تتعدى مكانا هو

---

(١) خدمة إله الهنود (برهما) .
(٢) السند : إقليم صحراوى فى جنوب شرق باكستان ، فتحت فى أيام الحجاج بن يوسف. معجم البلدان (٦٦٨٣) .
(٣) الظالم .
(٤) على غير هدى .

مقامك ، وتقصد بيت الشاه ويفوت مرامك ، ويناديك فرزين العقل[١] وأنت راحل فى النقل ، يا ذا الهوس ماذا بيت الفَرَس فتقع وأنت تصرخ فى لعبك: بالنفس مع الرخ[٢] ، فلا يفيدك الندم وقد زلت بك القدم ، وخرجت فى لعبة من رفعة الوجود إلى العدم ، وترى تلافى الموافاة فات ، ويقول خصمك وقد رأى كلاحة وجهك : شاه مات[٣] ، فلا تعتمد على جهامة جسدك ، وكف عن حقدك وحسدك ، ولا تقصد حرم كعبة غيرك بالفكر الوبيل فيصيبك مثل ما أصاب أصحاب الفيل ، حين أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، وتصير بعد وقوع الملاحم وصدوع المقاحم[٤] ، أبا حرمان بعد أن كنت أبا مزاحم .

فلما قرأ الفيل هذه المطالعة ، غطت حمية الجاهلية منه الباصرة والسامعة ، فأراد أن يأمر بإيطاء الرسول تحت أخفاف الفيول ، لكن راجع عقله وأحضر وهله ، ورد الذيب بجواب مخيب ، وسهم غير مصيب ، وقال: استعدوا للقتال ، ومصادمة الأبطال ومقارعة الأفيال ، ثم أمر بالعساكر فتجهزت وبأمور الحرب فتنجَّزَتْ ، وثار بغضب أحمى من جمر الغضا ، وسار بالعساكر الجرار فملأ الفضا ، فبلغ الملك المظفر أبا الحرث الغضنفر ، ما فعله الأكلب فاستشار الثعلب .

فقال : اعلم أيها الملك وقاك الله شر المنهمك ، أن الأفيال لا يعرفون إلا المصادمة والاندفاع مرة واحدة فى المخاصمة ، وليس لهم فى الحرب حِرَاب ، إلا الخراطيم والأنياب ، لا يعرفون الكر والفر ، ولا يفرقون بين

---

(١) الملكة فى لعب الشطرنج .

(٢) الطابية ، وهى من قطع الشطرنج .

(٣) أى مات الملك ، وانتهى الدست .

(٤) المقاحم ، مفردها القحمة : المهلكة .

النَّصب والجر ، ولكن بعض العساكر له فى ذلك معارف ومناكر ، منها المواجهة والمشافهة والمصارعة والمقارعة ، والمدافعة والممانعة ، والمخاتلة والمخادعة ، والمناوشة والمهاوشة والمعانشة[(١)] والمهارشة ، والمكافحة والملاطحة ، والمطارحة والمرامحة ، والمرافسة والمراوسة[(٢)]، والممارسة والمعاكسة ، والوثوب والمساورة ، والروغان والمصادرة ، والاحتيال والكيد، والاغتيال للصيد ، والربوض فى الكمين ، والنهوض من ذات الشمال وذات اليمين ، وكل أرباب هذه الملاعب وأصحاب هذه المخارق والمذاهب ، فى عساكرنا موجودون مجدون ، ومن أبطالنا معدودون مُعَدُّون ، فلابد من ترتيب كل فى مكانه وإيقافه بين أضرابه وأقرانه، وتعبيتهم ثم تخبيتهم .

وكان بالقرب من ميدان النطاح ، وموضع جولان الكفاح وهو برية قفراء ، وأرض غبراء ، أنهر مياه جارية وعليها جسور وقناطر عالية، فاقتضى رأى الأسد والفكر الأسد أن يطلقوا ثغور المياه على البرية ، ويتركوا فيها لعساكرهم طرقا ودروبا مخفية ، ثم أنهم عبروا تلك المياه وصفوا العساكر للملاقاة ، فقدموا أمامهم الثعالب والكلاب وكل سريع المجىء خفيف الذهاب ، وصفُّوا وراءهم الذئاب والنمور ، والفهود والببور[(٣)] ، ووقف الأسد بين الأسود فى قلب الجنود ، بعد أن عبى الأطلاب[(٤)] ، وعرف مقام كل من القرانيص[(٥)] والأجلاب[(٦)] ، ثم أن الثعالب ونظراءها دخلت من الأفيال

---

(١) المعانقة فى الحرب .

(٢) الغلبة .

(٣) الببور ، مفردها ببر : نوع من السباع الهندية ، وهو أبيض البطن والجانبين ، مخطط بخطوط سود .

(٤) المبارزون المقاتلون .

(٥) قرنص البازى لازم متعد ، والقرانيص : خرز فى أعلى الخف ، الواحدة قرنوص .

(٦) المستجلبون للحرب .

وراءها وصارت تروغ بينها وتلاعب على عينها حَيْنَها ، وتتعلق بأذنابها وتتشبث بعراقيبها وكعابها فزاد حنقهم وثار قلقهم ، وتقدموا واصطدموا وحطموا واضطرموا ، وبنار الحرب اصطلموا ، فناوشهم الببور البواسر وهاوشهم النمور الجواسر ، وهارشهم الأسود الكواسر ، ثم ولوا أمامهم مدبرين وقصدوا الطرق المخفية عابرين ، فتصور الأفيال أن جيش الأسد فر وجنده انحطم وانكسر ، وأن عسكرهم غلب وانتصر فحطموا يدا واحدة بهمة متعاضدة ، ونهمة متعاقدة ، وصدمة متآكدة ، ففي الحال ارتدموا وفي الأوحال ارتطموا ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، ثم كرَّت عليهم الأسود ، والنمور ، والفهود ، وسائر السباع والذئاب والضباع ، فوقعوا في تلك الفرائس وقوع الجياع على الهرائس[(١)] ، وعانقوهم معانقة الأحباب للعرائس وأكلوا وادخروا ، وحمدوا الله تعالى وشكروا ، ومن بعد ما ظلموا انتصروا ، وأظهر العدل للحق منارة ، وظهر سر قوله عليه الصلاة والسلام «من آذى جاره ورثه الله داره»[(٢)] .

والله لا يهدى القوم الظالمين ، والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه أجمعين .

---

(١) طعام يُعمل من الحب المدقوق واللحم .

(٢) الحديث بهذا اللفظ ؛ من كلام بعضهم ، وهو مثل سائر بين الناس ، ومأخذه فى كتاب الله من قوله تعالى **﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾** وقد أورد أبو نعيم فى الحلية حديثاً عن أنس بلفظ «من آذى جاره ، فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ومن حارب جاره فقد حاربنى ، ومن حاربنى فقد حارب الله» . كشف العجلونى (٢/٢١٩) .